قراءةٌ في كتاب
الدَّرسُ النَّحويُّ فِي الحِلَّةِ
حتَّى نِهَايةِ القَرْنِ الرَّابعِ عَشَرَ الهِجْريّ
نشأَتُهُ وَتطوُّرُه

عرض : أ.د. حُسَين عَليّ حُسَين الفَتْليّ
وزارة التربية/الكلية التربويَّة/بابل

Reading in a Book
The Grammar Lesson in Hilla Until the End of the Fourteenth Century A.H.
Its Origin and Development

Presentation: Asst. Prof. Dr. Hussein Ali Hussein Al-Fatly
Ministry of Education/Educational College /Babel

الحَمْـدُ للهِ الَّذي جَعَـلَ عِلْمَ العَربيّـةِ أَمَارةً بـاصِرَةً لِكَشْفِ معارِفِ كتابِـهِ العزيزِ، وخِطابِـهِ الشَّريفِ الَّذِي حَبَا الإنسانَ عَوامِلِ الخَلْقِ والتَّكريم والتَّعليم، فَجَاءَ فِي أَحَسَنِ تقويـمٍ، وأَبهـى تَمييزٍ، وأَبْيَنِ إعرابٍ، وصـلَّى الله على صَاحبِ المَوَاهـبِ السَّنِيَّة والفرائدِ البَهيَّة نبيّنا محمَّد وآله الطيِّبين الطَّاهرين. أمَّا بعد:

فَمِنْ بينِ إصدارات مركز تراث الحِلَّة/ قسم شـؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة كتاب (الدَّرسُ النَّحويُّ فِي الحِلَّةِ حتىَّ نِهَايةِ القَرْنِ الرَّابعِ عَشَرَ الهِجْريّ نشأَتُهُ وَتطوُّرُهُ)، لمؤلِّفه الدكتور قاسم رحيم السلطانيّ، وهو كتابٌ نفيسٌ فِي جنسِهِ، مفيدٌ فِي بابِهِ، كشف فيه المؤلِّفُ عن دَرْسٍ نَحْوِيٍّ لم يُدرج في ضمن الدروس النحويَّة أو المدارس التي اشتهرت بها المدن الكبـيرة، كالبصرة والكوفة وبغداد، والأمصار العربيَّة والمدن الإسلاميَّة، مثل مـصر والأندلس وغيرها، والذي أغـرى المؤلِّف في ذلك وجود مؤسَّسـة علميَّة كبيرة في الحِلَّـة آنـذاك، في وقـتٍ خيَّم فيـه الجهل والتخلُّـف والجمود الفكريّ عـلى كثيرٍ من البـلاد الإسلاميَّة بعد النكبات التي مُنيت بها، إذْ تمكَّن المؤلِّف التعريف بمدرسة علميَّة عريقـة، بلـغ علماؤها مرتبة علميَّة كبيرة، كان عطاؤها متواصـلًا إلى يومنا هذا، وكانت ترفـد العالم بالعلماء والفقهـاء، لكنَّها غُيِّبت عن الساحة العلميَّة، فلم يُسلَّط على علمائها الأضـواء، ولم يأخـذوا حقَّهم من الشهرة، فقَلَّتْ الدراسـات عنهم، وبخس المؤرِّخون حقَّهم.

وكـان الإحساس بالمسؤوليَّة تجاه هذه المدينة المباركـة، كما يقول المؤلِّف، هو الذي دفعـه إلى البحث والاستقراء عـن كلِّ معالمها الحضاريَّة؛ للكشـف عن وجهٍ من وجوه المعرفـة التي اشـتُهِرت بهـا، وتسليط الضوء عـلى الإمكانـات العلميَّة التـي يتمتَّع بها

علماؤهـا، وفضلهم الذي سُلب بسبب الإهمال؛ وإنَّ مـا خلَّفوه من تراث كبير أُخفِيَت معالمُهُ، إذْ كان صرحًا شـامخًا انتفعت به أكثر البـلاد الإسلاميَّة، من هنا تَحَتَّمَ نفض غبار السنين عن هذا الوجه؛ ليُزهر من جديد بحُلَّة جميلة.

ومن أجل عرض الدراسة والوقوف عليها، نوجز هذه القراءة بالآتي:

فأمَّا نقطة الانطلاق في التأليف، فالكتاب في الأصل أطروحة دكتوراه قدَّمها المؤلِّف إلى قسـم اللغة العربيَّة في كليَّـة التربية/ جامعة بابل، وتعود جذور هذه الدراسة إلى عام ٢٠٠٣م، وكـان في نيَّـة المؤلِّف دراسة نشـأة الدراسات اللغويَّة في الحِلَّـة، غير أنَّ سِعة الموضـوع جعلته يكتفي بمستـوًى واحد من مستويات اللغة، وهـو المستوى النحويّ، فكـان العنوان: (الدَّرسُ النَّحويُّ فِي الحِلَّةِ حتىَّ نِهَايةِ القَـرْنِ الرَّابعِ عَشَرَ الهِجْريّ نشأَتُهُ وَتطـوُّرُهُ)، وضمَّن المؤلِّف هذه الدراسة دراسة تحليليَّـة في كتاب الصفوة الصفيَّة لتقيِّ الديـن النيليّ (ت ق٧هـ)؛ لأهميَّة ما أبدعه النيليّ في المستـوى النحويّ، إذ ألَّف شرحَيْنِ مُهمَّـينِ في النَّحـو، الأوَّل: شرحه على الـدرَّة الألفيَّة لابن معـط (ت ٦٢٨هـ) المسمَّى بـ(الصفـوة الصفيَّـة في شرح الـدرَّة الألفيَّة)، والثـاني: شرحه على كافيـة ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) المسمَّـى بـ(التحفة الشافية في شرح الكافيـة)، ولعدم وقوف المؤلِّف على كتاب التحفة الشافية مُحَقَّقًا، اكتفى بكتاب الصفوة الصفيَّة.

وقبـل الشروع بالتأليف، عمل المؤلِّف دراسة مستفيضة اطَّلع فيها على تراث الحِلَّة فيما يتعلَّق بالدرس النحويّ، واستقصاه استقصاءً شـاملًا وتامًّا، وشملت هذه الدراسة كـلَّ ما عنَّ له مـن كتبٍ ومخطوطات وأفكار وملاحِظ سديدة لعلماء الحِلَّة، وقد أبدع في ذلك أيَّما إبداع.

أمَّا تقسيم الكتاب، فقد اشتمل على تمهيد وبابَين، ضمَّن كلَّ بابٍ فصلَين في (٦٨١)

صحيفـة، ففي التمهيد كشف المؤلِّف عَنْ معنى الحِلَّة لغةً واصطلاحًا، وسبب تسميتها بهذا الاسم، وموقعها الجغـرافيّ الذي أهَّلها أنْ تكون في قلب المراكز العلميَّة، وبدايات تأسيسهـا، فضلًا عن مكانتها التاريخيَّة والعلميَّة، وأسباب ازدهارها الفكريّ، ثمَّ توسَّع في الكلام عن (نشأة الدراسات النحويَّة في الحِلَّة).

أمَّا الباب الأوَّل فخصَّصه للحديث عن: (عوامل النشوء والتأثُّر بين نحويي الحِلَّة وعلماء النحو في المدن الإسلاميَّة)، وقسمَّه على توطئة وفصلَين:

أمَّـا الفَصْـلُ الأُوَّلُ فقَسَّمه عَلَى مَبْحَثَـيْنِ: المبحث الأوَّل: وَسَمَـه بـ(العوامل التي ساعدت على نشأة الدرس النحـويّ في الحِلَّة)، والمبحث الثاني: وَسَمَه بـ(رحلة نحويي الحِلَّة إلى مراكز الدراسات النحويَّة).

أمَّا الفَصْـلُ الثاني فكان بعنوان: (النحويُّون الحِلِّيُّـون ومؤلَّفاتهم تعريفًا ووصفًا)، وقسَّمه على مبحَثَين:

المبحـث الأوَّل: وَسَمـهُ بعنوان: (نَحْوِيُّو الحِلَّـةِ تَعْرِيفًا وَتَرْجَمَةً). سَلَّـطَ الضَوْءَ فِيهِ عَـلَى أَعْـلَام الـدَرْسِ النَحْوِيّ فِي الحِلَّـةِ، مقسِّمًا إيَّاهـم بحسب القـرون، مبتدِئًا بالقرن الثـاني الهجـريّ، ومنتهيًـا بالقـرن الرابع عـشر الهجريّ، وكـان عددهم نحـو تسعين عالـمًا.

والمبحـث الثاني: وسمهُ بِعُنْـوَانِ (تصانيف علـماء الحِلَّة دراسةً وصفيـةً)، تَضَمَّنَ ما تركوه من كتـب نحويَّة بلغت أكثر من ثلاثة وخمسين كتابًا، بعضها مطبوع، وبعضها الآخـر مخطوط لم يُحقَّق بعد، قِسم منه عثـرَ عليه المؤلِّف، والأغلب مفقود، مع التعريف بمحتويـات تلك التصانيف ومناهجها ومباحثهـا، فبَيَّن فيها جهودهم فيما تحصَّلْتُ من مؤلَّفاتهـم المختلفة التي أُلِّفت في فروع اللغـة من كتبٍ نحويَّة متخصِّصة، وتصانيف في

مختلف العلوم، تناولت في ضمن موضوعاتها الجانب النحويّ، كـ(كتب الفقه، وكتب أصول الفقه، وكتب التفسير).

أَمَّا الباب الثاني، فقسَّمه على مدخل وفصلَين: تحدَّث في المدخل عن الحياة الاجتماعيَّة لتقيِّ الدين النيليّ، أمَّا الفَصْلُ الأوَّل، فكان بعنوان: (توجُّهه النحويّ) بحثَ فيه المؤلِّف منهج تَقِيّ الدِينِ النِيلِيّ النَحْوِيّ، وذلك بدراسة مَوْقِفِهِ مِنْ أَدِلَّةِ الصِنَاعَةِ النَحْوِيَّةِ، وَالعِلَّةِ وَالعَامِلِ، وَقَسَّمَه عَلَى أربعة مَبَاحِثَ، وهي على الترتيب (موقفه من أصول النحو، وموقفه من العامل النحويّ، وموقفه من مسائل الخلاف).

الفَصْلُ الثَاني: (جهده النحويّ)، وينتظم في مبحثَين: اشتمل المبحث الأوَّل على اعتراضاتِهِ النَحْوِيَّةِ، مقسِّمًا إيَّاه على ستَّة مطالب، وهي على الترتيب (الاعتراض في اللغة والاصطلاح، وأقسام الاعتراض، واعتراضاته على الكوفيِّين، واعتراضاته على البغداديِّين، واعتراضاته على البصريِّين، واعتراضاته على ابن معط).

أمَّا المبحث الثاني، فكان عن ترجيحاته النَحْوِيَّةُ، واشتمل على مطلبَين: (الأوَّل عن ترجيحاته لآراء البصريِّين، والثاني كان عن ترجيحاته لآراء الكوفيِّين).

وأمَّا المبحث الثالث، فكان عن آرائه التي انفرد بها، ثُمَّ الخاتمة، فقد أودعها أهمَّ نتائج البحث.

أمَّا مصادر الدراسة، فقد اعتمد المؤلِّف في دراسته على مصادر متنوِّعة، زيادةً على كتب النحو، ولا سيما ما ألَّفه نحويُّو الحِلَّة موضوع الدراسة، ومصادر الدرس النحويّ المتقدِّمة، أمَّا المصادر غير النحويَّة التي اعتمدها في دراسته، فهي كما يأتي:

أ. مصادر تاريخيَّة عامَّة: وهي كثيرة، ومراجع متخصِّصة بالحِلَّة، أهمها:

البابليَّات لمحمَّد عليّ اليعقوبيّ (ت ١٣٨٥هـ)، شعراء الحِلَّة والبابليَّات لعليّ الخاقانيّ (ت ١٣٣٤هـ)، الحصون المنيعة للشيخ عليّ كاشف الغطاء (ت ١٣٥٠هـ)، فقهاء الفيحاء للسيِّد هادي كمال الدين (ت ١٤٠٦هـ)، تاريخ الحِلَّة للشيخ يوسف كركوش (ت١٤١١هـ).

ب. كتب طبقات اللغويِّين وَالنَحْويِّين، وأهمها:

مراتب النُّحاة واللغويِّين لأبي الطيِّب اللغويّ (ت٣٥١هـ)، طبقات النحويِّين واللغويِّين، لأبي بكر محمَّد بن الحسن الزبيديّ (ت ٣٧٩هـ)، نزهة الألبَّاء في طبقات الأدباء، لأبي البركات الأنباريّ (ت٥٧٧هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، لأبي الحسن عليّ بن يوسف القفطيّ (ت٦٢٤هـ)، طبقات النحاة واللغويِّين، لتقيّ الدين الأسديّ ابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويِّين والنحاة للسيوطيّ (ت ٩١١هـ).

ج. كتب طبقات الأدباء وتراجمهم، وأهمها:

معجم الأدباء، لياقوت الحمويّ (ت٦٢٦هـ)، تلخيص مجمع الآداب، لابن الفوطيّ (ت٧٢٣هـ).

أمَّا أبرز النتائج التي توصَّل اليها المؤلِّف، فبعد التتبُّع والاستقراء للدرس النحويّ في الحِلَّة، والجهد الكبير الذي بذله، تبيَّن أنَّ الدرس النحويّ بدأ في منتصف القرن الثاني عندما ازدهرت الحركة الفكريَّة في منطقة النيل، التي تعدُّ من أهمِّ نواحي مدينة الحِلَّة اليوم، ولكن ملامح الدرس اتَّضحت في القرن السادس الهجريّ، وهو القرن الذي انتقلت فيه المؤسَّسة الدينيَّة (الحوزة العلميَّة) من النجف الأشرف إلى الحِلَّة، وهذا

الانتقال جاء بعد الفتور والضعف الذي أصاب حوزة النجف، واتَّجهت الأنظار إلى ابن إدريس الحِلِّيّ (٥٩٨هـ)، وقد بزغ نجمه في العلوم الدينيَّة في الحِلَّة، ممَّا أدَّى إلى ازدهار حوزة الحِلَّة، وتوجه العلماء إليها.

ومن أبرز النتائج أيضًا أنَّ الحلقة المفقودة في مسيرة الدرس النحويّ في الحِلَّة، تكمن في ضياع النتاج الفكريّ لعلماء الحِلَّة الذين لجؤوا إلى المراكز العلميَّة للمدن المجاورة، وذلك نتيجة ضياع اللقب الحِلِّيّ بالانتساب إلى تلك المناطق، ولذا أحصى المؤلِّف علماء النَّحو الحِلِّيِّين مَنْ وُلِد فيها وَنشأ، أو مَنْ ولد فيها ونشأ في المدن الكبيرة، أو مَنْ درس في الحِلَّة مدَّة طويلة من الزمن حتَّى لُقِّب بالحِلِّيّ، أو مَنْ درَّس فيها، وبذلك استوفى تأصيل انتماء الدرس النحويّ إلى مدينة الحِلَّة.

ختم المؤلِّف كتابه بملاحق وفهارس نافعة، أهمّها: ملاحق شملت الصحيفة الأُولى والأخيرة من بعض المخطوطات الحِلِّيَّة النَّحويَّة، وأسماء الكتب الحِلِّيَّة النَّحويَّة، وأسماء المؤلِّفين الحِلِّيِّين الذين ألَّفوها، وغيرها من الملاحق.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.